سورة التكوير

هذه السورة العظيمة تهدف إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تقرير عقيدة اليوم الآخر .

الأمر الثاني: تقرير أن القرآن كلام الله .

الأمر الثالث: تقرير المسؤولية البشرية .

يسمي العلماء هذه السورة (سورة التكوير) ، وقد سماها النبي ﷺ، بأول جملة فيها (إذا الشمس كورت)، فقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي قال ﷺ " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ]، وَ[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ]، وَ[إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ]"رواه الترمذي[1]. وهذه السور الثلاث متشابهة في مقاصدها، وفي نظمها .

[إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾]

[إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾]: استهلّ الله سبحانه وتعالى هذه السورة بأداة الشرط (إذا)، واتبعها بعدة جمل للوصول إلى جواب الشرط. وقد لفت الله تعالى انتباه المخاطبين، من المشركين، الذين يعانون من بلادة التفكير، وعدم الاعتبار بالآيات الكونية، إلى آية باهرة، يرونها كل يوم؛ وهي الشمس التي تطلع عليهم كل صباح، وتغيب عنهم كل مساء. لقد بات هذا المشهد العظيم في حس كثير من الناس منظراً مألوفاً، ولكن الله سبحانه وتعالى يبين أن هذه الصورة المتكررة، وهذا المنظر المألوف، لن يدوم، وأنه سيأتي عليه وقت يختلف عما هو عليه! ولا ريب أن هذا من دواعي هز النفس من أركانها؛ أن يقال إن هذه الشمس، التي تراها صبيحة كل يوم، يطلع قرنها من جهة المشرق، ثم تراها عشية كل يوم، يسقط قرنها في جهة المغرب، أنها في يوم من الأيام تكور! فقال: [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ]: لهذه اللفظة أربعة معاني عند المفسرين: فمنهم من قال: [كُوِّرَتْ] ذهبت، وزالت. فهذه الشمس المرئية التي لا تخطئها العين،

---

[1] سنن الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد في المسند (٤٨٠٦) وصححه الألباني .

والتي يحال عليها في تحقيق الخبر، فيقول الناس : " كالشمس في رابعة النهار "، وكما في الأثر (على مثلها فآشهد أودع) [٢]، تذهب. وقيل في معنى [كُوِّرَتْ] أي ذهب ضوئها، وأظلمت، بعد أن كانت نيرة مشعة. وقيل: رميت، وألقيت. وقيل: جمعت، ولفت، كما تلف العمامة.

وهذه المعاني الأربعة لا تعارض بينها؛ وذلك أن الشمس مخلوق عظيم، يعتريها يوم القيامة من الحوادث أحوال عديدة، فيبتدئ الحال بأن تجمع هذه الشمس بعضها على بعض، وتلف، وبعد لفها يذهب ضوئها، وينقبض، وينحسر، ثم بعد ذلك، يذهب بها، فتزال عن موضعها، ثم يرمى بها، فيكون مستقرها أن تلقى في النار، إذ أنها من طبيعة النار؛ فإن الشمس، كما هو معروف عند علماء الفلك، جسم ناري، ملتهب، حتى إن الفلكيين يقولون إنه يجري على سطح الشمس من الانفجارات الهائلة، ما يعادل ملايين الانفجارات النووية. فهي جسم ملتهب، متقد، ولذلك يصلنا القدر الذي يكفينا من ضوئها، ودفئها. وبهذا تجتمع المعاني الأربعة للفظ التكوير، دون تعارض.

هذا هو المشهد الأول، ولا شك أن تحول المناظر المألوفة، مما يبعث على الفزع، فإن الشيء المستقر الراتب إذا تغير يبعث على الفزع، ويحرك القلوب الراكدة.

[وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾]: النجوم هي تلك النقاط التي نراها في قبة السماء، ليلاً، تبعث الضوء، وتبدو لنا صغيرة، وإن كان أهل الفلك يقولون إنها شموس كبيرة، جبارة، ولكن لبعد مسافاتها، التي تقاس بالسنين الضوئية، تبدو لنا كالنقط. وللمفسرين في معنى [ٱنكَدَرَتْ] أقوال: فمنهم من قال: إن معنى [ٱنكَدَرَتْ] تناثرت، وتساقطت، وتهافتت، شذر مذر، وهذا أيضاً أمر يدعو للفزع؛ فإن الإنسان إذا رأى الشهب، والنيازك، تتقاذف في السماء أصابه روع، ولو وقع شيء منها على الأرض، أحرقه، أوترك فيها أثراً، وحفراً، يجده الناس في أحيانًا الصحاري، فكيف إذا كانت هذه النجوم، التي تعد بالملايين، يجري لها هذا الأمر ؟! ويشهد لهذا المعنى قول الله تعالى في السورة التالية: [إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾] {الانفطار:١-٢} فهذا من الانتشار. وقيل في معنى [ٱنكَدَرَتْ]: تغير لونها،

---

[٢] حلية الأولياء (١٨/٤) والحاكم في المستدرك (٧٠٤٥)، البيهقي في شعب الإيمان (١٠٩٧٤)، وإسناده ضعيف، قال الحافظ ابن حجر في البلوغ: (٢٩٠/١) صححه الحاكم فأخطأ.

فإن الكدرة هي تغير اللون، بحيث يخبو البريق، ويذهب الوهج. وهذا أيضاً حاصل؛ فإنها تسلب لمعانها، وبريقها الذي هي عليه في الدنيا. إذاً هذا مظهر آخر من مظاهر القيامة.

[وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾]: هذه الجبال الرواسي، الشامخات، التي يضرب بها المثل في الثبات، تزول عن أماكنها، ويسيِّرها الله ﷻ، كما قال في الآية الأخرى: [وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ] {النمل:٨٨}. وهذا هو أحد أحوال الجبال يوم القيامة، وهو حال التسيير؛ بأن تزول من أماكنها، التي كانت قد ثبتت، وأرسيت فيها، فتسير سيراً عجيباً. ثم يتلو هذا التسيير مرحلة النسف، كما قال الله تعالى: [وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا] {طه:١٠٥} . ويتلو هذا الحال مرحلة البس، والدق، حتى تعود هباءً منبثاً، كما قال الله ﷻ: [وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾]{الواقعة:٥-٦}. فينبغي أن تجمع الآيات في القضية الواحدة، ليكتمل فهمها ، فلا يقال إن هذا يعارض هذا ، بل يقال: إن يوم القيامة يوم طويل، تحصل فيه هذه الأحداث المتنوعة، وتتوالى.

[وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾]: الناقة العُشراء، أي التي بلغت الشهر العاشر في حملها، وصارت على وشك الوضع. والنوق كانت، ولا تزال، أنفس أموال العرب، فكيف إذا كانت هذه النوق على وشك الولادة! لا شك أن ثمنها يعلو؛ لأن الذي يملكها يطمع في النتاج. ومعنى [عُطِّلَتْ]: أهملت، وتركت بلا راعٍ يرعاها، ولا موالٍ يواليها. دفع إلى ذلك هول الموقف .

[وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾]: الوحش هو الحيوان غير المستأنس، الذي يعيش في الفلوات. قيل في معنى[حُشِرَتْ]: ماتت، وقيل، وهو الأقرب، أي جمعت؛ لأن الحشر هو الجمع الذي يصاحبه ضيق، واكتظاظ، كما قال الله ﷻ: [هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ] {الحشر:٢}، فهذه الوحوش التي عاشت على وجه الأرض، مما نرى، ومما لا نرى، ومما انقرض، كلها يوم القيامة تحشر، وتجمع. ويمكن الجمع بين القولين بأن تجمع أولاً، ثم تموت، بعد ذلك؛ فإنه يقال لها: كوني تراباً .

[وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾]: البحار تشمل ما نسميه الآن البحار، والمحيطات، والأنهار، فإن هذا كله يشمله اسم البحر، قال الله تعالى: [۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا

بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾] {الفرقان:٥٣}، فالبحر يطلق على مجتمع الماء الكثير. وقد وردت قراءة بالتشديد، يعني بالتضعيف [سُجِّرت]، ووردت بالتخفيف[سُجِرَت]. والتسجير له عدة معاني ، فقيل إن معنى [سجرت] أي أوقدت، وأشعلت ، وقيل : امتلأت، وفاضت ، وقيل: يبست .

وكما قلنا في الجبال، وفي الشمس، نقول أيضاً في البحار: إن هذه البحار يعتريها أحوال يوم القيامة، فلعل أول ما يعتريها أنها تفجر، كما في السورة التالية: [وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾] {الانفطار:٣} أي فاضت، وامتلأت، فاختلط الماء العذب، بالماء الحلو، وفاضت عن حدها، ووعائها الذي كان يحفظها، فإن الله سبحانه وتعالى قال : [وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾] {الفرقان:٥٣} فهذا البرزخ يكسر يوم القيامة، ويقع امتلاء وفيضان. ثم يقع بعد ذلك التسجير، بمعنى الإيقاد، والإشعال، كما قال في السورة الأخرى: [وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ] {الطور:٦} يعني: الموقد المضطرم ناراً، فيجري إيقاد، وينشأ عن هذا الإيقاد أن يتبخر هذا الماء، فتيبس البحار. فتكون هذه المعاني محمولةً على أحوال مختلفة، فلا يكون هذا من باب التعارض والتناقض، وإنما من باب التنوع.

هذه الأمور الستة، روي عن أبي ابن كعب، ﷺ[٣] ، أنها تقع يوم القيامة، قبل البعث، مقارنة لنفخة الصعق، وأما ما بعدها، مما سيأتي، فيقع بعد البعث. وإذا أطلق (يوم القيامة) فقد يراد به ما يصاحب نفخة الصعق، وقد يراد به ما يتلو نفخة البعث؛ لأن النفخ نفختان، كما قال الله ﷻ :[وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾] {الزمر:٦٨}، نفخة للصعق، ونفخة للبعث. وأضاف بعض العلماء نفخة ثالثة، وهي نفخة الفزع ! لكن الذي تدل ظاهر عليه الأدلة أنهما نفختان.

[وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾]: هذا يكون بعد البعث. ومعنى [زُوِّجَتْ] أي: قرنت النفوس بالأبدان التي كانت تعمرها في الدنيا. وقيل: أي قرن الأشباه، والنظائر، بعضها ببعض؛ فاليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، كما قال الله تعالى : [۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ] {الصافات:٢٢} يعني أشكالهم وأشباههم ، فيكون معنى [زُوِّجَتْ] يعني قرنت بأشباهها، وأشكالها. ولعل هذا المعنى أرجح؛

---

[٣] تفسير ابن أبي حاتم (٣٦٩/١٢).

وذلك أن الله، ﷻ، كثيراً ما يذكر التصنيف، كما في قوله: [فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ] {الشورى:٧}، وقال [فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ]، فهذا التصنيف، والقرن، هو التزويج المراد بقوله: [وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ].

[وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾] الموؤدة: البنت التي يقتلها أبوها في صغرها، إما خشية العار، وإما خشية الحاجة، أو خشية الأمرين معاً. فقد كان أهل الجاهلية، والعياذ بالله، يئدون البنات، قال تعالى: [وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ] {النحل:٥٨-٥٩}، روى الإمام الدارمي رحمه الله في مطلع سننه أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِىَّ، ﷺ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةِ أَوْثَانٍ ، فَكُنَّا نَقْتُلُ الأَوْلاَدَ ، وَكَانَتْ عِنْدِى بِنْتٌ لِى ، فَلَمَّا أَجَابَتْ عِبَادَةَ الأَوْثَانِ ، وَكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِى إِذَا دَعَوْتُهَا ، فَدَعَوْتُهَا يَوْماً فَاتَّبَعَتْنِى ، فَمَرَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بِئْراً مِنْ أَهْلِى غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَرَدَّيْتُ بِهَا فِى الْبِئْرِ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِى بِهَا أَنْ تَقُولَ : يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ. فَبَكَى رَسُولُ اللهِ -ﷺ- حَتَّى وَكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- : أَحْزَنْتَ رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ لَهُ :« كُفَّ ، فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ ». ثُمَّ قَالَ لَهُ :« أَعِدْ عَلَىَّ حَدِيثَكَ ». فَأَعَادَهُ ، فَبَكَى حَتَّى وَكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى لِحْيَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :« إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا، فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ »الدارمي [٤].

كان هذا حالهم، والعياذ بالله، يئدون البنات؛ لأنهم يخشون العار؛ لما يقع بينهم من الغزو، والسلب، والنهب، فيخشون أن تؤسر، فتقع في يد عدوه، فيكون عاراً عليه، أو يفعلون ذلك بسبب الفقر، أو الخوف منه. ولهذا نهاهم الله ﷻ: [وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ] {الإسراء:٣١}، [وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ] {الأنعام:١٥١} .

[بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾]: هذا السؤال من الله ﷻ في ذلك اليوم، ما أثقله، وما أعظمه على ذلك الوائد ! وماذا يكون جواب هذه الموءودة ؟ وقد جاء في قراءة [بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلْتِ] على سبيل الخطاب. ولا شك

---

[٤] سنن الدارمي (٢) قال محققه، حسين اسد: مرسل وتفرد بروايته الدارمي.

أنه لا ذنب لها، وإنما الذنب يتحمله هذا الوائد، القاطع. وهذا مما أكرم الله تعالى به المرأة في هذه الشريعة العظيمة، أن حفظها من هذا الهوان وهذا القتل .

[وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾]: المراد بالصحف: صحائف الأعمال، التي يقيد بها الكرام الكاتبون ما يخرج من الإنسان من خير، أو شر. ومعنى [نُشِرَتْ]: أي فتحت، وأبرزت، فلا خفاء، ولا سر، بل عدل ظاهر، وحق بين. وهذا من كمال عدل الله ﷻ ، واعتبار الشارع بالتوثيق، فكل إنسان يقيد عليه ما طار منه من عمل، كما قال الله ﷻ: [وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾] {الإسراء:١٣} يعني ما طار منه من عمل، لأن ما يبدر منك من فعل، أو قول، كالطائر الذي فر منك، لا سبيل إلى رده، فلذلك سمي طائراً، ومعنى [مَنشُورًا]: أي مفتوحاً ،كما ها هنا .

[وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾]: هذا مظهر عجيب! هذه السماء التي يُسَـرِّح الإنسان فيها طرفه، ويرسله في أرجائها، ويبحث عن موضع ثقب، ولو كجب الإبرة، فلا يجده ! كما قال الله تعالى: [فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾] {الملك:٣-٤}، فهي سماء محكمة، مصمتة، لا يوجد فيها أدنى خلل، في يوم القيامة تكشط، أي: تسلخ كما يسلخ الجلد من الذبيحة، حين يضع الجزار عليها قدمه، أو فيها يده، ويكشط الجلد! قال الله تعالى في الآية الأخرى: [يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ] {الأنبياء:١٠٤} السجل: هو ما تحفظ فيه الكتب، والمواثيق، يدار، فتدرج فيه الورقة. فهذه السماء تطوى طياً، وعبر هاهنا بالكشط وهو الإزالة . ومن شواهد ذلك، أن الله تعالى عبر بالتشقق، حيث قال: [وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ] {الفرقان:٢٥} فكل سماء تنفرج وتنشق عن السماء التي فوقها.

ولا ريب أن هذه الأمور أمور غيبية، نفهم منها المعنى العام، المشترك، الذي دلت عليه اللغة، لكننا لا نحيط بالكيفية. فما دل عليه القرآن من أحوال يوم القيامة، ومن صفات الرب ﷻ، فهو حق على حقيقته فلا هو كلام أعجمي غير مفهوم، ولا هو حكاية كيفية تتخيلها الأذهان، بل هو إدراك للمعنى، دون إدراك للكيفية. فنحن إذا قرأنا هذه الآيات المتعلقة باليوم الآخر، أو الآيات المتعلقة

بصفات الرب ﷻ ، ندرك منها بمقتضى الوضع العربي معاني معينة، لكننا لا ندرك الحقائق، والكنه، والكيفيات، ولا شك أن إدراكنا للمعاني كافٍ في حصول الموعظة، والعبرة، والتأثير.

[وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾] الجحيم: اسم من أسماء النار، وهي تدل على الجهامة، والظلمة، فهي سوداء، مظلمة، يحطم بعضها بعضاً. ومعنى قوله : [سُعِّرَتْ] أي: زيد في إيقادها، وتسعيرها، وإلا فإنها مخلوقة، موجودة، وهذا هو الذي دلت عليه النصوص، لكنها يوم القيامة تَهيُئ لأضيافها، وبئس الأضياف، وبئس النزل .

[وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾]: روي عن بعض السلف أن الآيتين [وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾]، هما مجرى الخطاب، يعني أن كل ما سبق، ذكر للوصول إلى هذا الأمر، أي إلى جحيم تسعر، أو جنة تزلف. ومعنى (أزلفت): أي: قربت، وأدنيت. ولهذا كان من شأن الجنة، أنها تفتح أبوابها تلقائياً، وأن النار، والعياذ بالله، تفتح فجأة، كما ذكر الله ذلك في آخر سورة الزمر [وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا] {الزمر:٧١} وفي هذا صدمة وهول، بينما قال في الجنة: [وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا] {الزمر:٧٣} كأنما هناك تهيؤٌ، واستقبال، وحفاوة مسبقة. نسأل الله من واسع فضله .

[عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾]: هذا جواب الشرط، ذكر بعد ثلاثة عشر جملة من قوله : ([إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾] إلى قوله : ([وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ]، و[نَفْسٌ]: اسم جنس، يعني نفس من النفوس، كما قال الله تعالى: [يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا] {آل عمران:٣٠}. ولا ريب أن من مرت به هذه المواقف المقارنة لقيام الساعة، والمواقف والأحوال التي تتلو البعث، يدرك يقيناً ما هو عليه. وهذا الشوط من الآيات شوط مهول، شوط يهز القلب من أركانه، وترتجف له النفوس الحية. وتأمل وقع هذه الآيات على قوم ينكرون البعث ! فإذا كان المؤمن الذي علم مسبقاً بهذا الأمر، وتلا السورة، وأمثالها، مراراً، يتأثر قلبه لتكرارها، فما بالك بهذا الذي قد أعفى نفسه من التفكير في هذه الأمور، وقيل له سيقع كذا وكذا. فسيجعله ذلك أمام مفترق طرق، فإما أن يتبع هذا النبي الذي جاء بهذا الحق، وإما أن يختار الأخرى. وهذه مجازفة، ومغامرة .

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: بيان هول يوم القيامة.

الفائدة الثانية: بيان عظيم قدرة الله تعالى؛ فهذا الكون المنتظم، الرتيب، بأفلاكه العلوية، ومخلوقاته السفلية، يُخلفه الله ﷻ، ويغير نمطه.

الفائدة الثالثة: شناعة جريمة الوأد، فقد خصها الله بالذكر في هذا السياق المليء بالآيات الكونية، والأحداث الكبرى.

الفائدة الرابعة: بيان كمال عدل الله .

الفائدة الخامسة: إثبات الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان .

الفائدة السادسة: إقرار المرء بعمله يوم القيامة .